أولا: في تعريف الأنثروبولوجيا

الأنثروبولوجيا هي علم الانسان وقد نحتت الكلمة من كلمتين يونانيتين هما Anthropos وتعني (إنسان)، وlogos وتعني علم أو دراسة (١) وبذلك يصبح معنى الأنثروبولوجيا من حيث اللفظ علم الأنسان ((أي العلم الذي يدرس الأنسان)) (٢)

وتعرف الأنثروبولوجيا تعريفات عدة اشهرها :

١_ علم الأنسان٠

٢_ علم الأنسان وأعماله وسلوكه ٠

٣_ علم الجماعات البشرية ٠

٤_ علم الانسان من حيث هو كائن طبيعي واجتماعي وثقافي

٥_ علم الثقافات والمجتمعات البشرية٠ (٣)

٦_ علم أوجه الشبه والاختلاف بين البشر٠(٤)

وتعرف عالمة الأنثروبولوجيا الأمريكية (روث بندكت) الأنثروبولوجيا ((بأنها دراسة البشر بوصفهم كائنات حية في المجتمع وهذا العلم يوجه اهتمامه الى تلك الخصائص الطبيعية والى المهارات المكتسبة والتقاليد المتوارثة والقيم الخاصة ، التي تميز جماعة بشرية بعينها لها تقاليد وثقافات خاصة عن الجماعات البشرية الأخرى)) (٥)

---

(١) شاكر مصطفى سليم ، المدخل الى الأنثروبولوجيا ، مطبعة العاني ، بغداد، ١٩٧٥ ص٧ .

(٢) عيسى الشماس ، المدخل إلى علم الأنسان ، اتحاد الكتاب العر ب ، دمشق، ٢٠٠٤،ص٩

(٣) شاكر مصطفى سليم ، مصدر سابق،ص٧

(٤) كلايد كلاكهون ، الأنسان في المرأة ترجمة شاكر مصطفى سليم ،مطبعةأسعد،بغداد،١٩٦٤،ص٣

(٥) روث بندكت ، الوان من ثقافات الشعوب ، ترجمة محمد مرسي ابو الليل ، لجنة البيان العربي ، القاهرة ، بلا ، ص١٩

كما تعرف الأنثروبولوجيا بأنها العلم الذي يبحث في أصل الجنس البشري وتطوره وأعرافه وعاداته ومعتقداته وفي السلالات البشرية وخصائصها ومميزاتها)(١)

وربما تكون افضل طريقة لتعريف الأنثروبولوجيا هي ان تقدم للقارئ فكرة عما يفعله الأنثروبولوجيون وفي هذا الصدد كتب الباحثة الأنثروبولوجية الأمريكية الشهيرة (مارجريت ميد) تقول ((نحن نصف الخصائص البيولوجية والثقافية للنوع البشري عبد الأزمان وفي سائر الأماكن ونحلل الصفات البيولوجية والثقافية المحلية كأنساق مترابطة ومتغيرة وذلك عن طريق نماذج و مقاييس ومناهج متطورة كما نهتم بوصف وتحليل النظم الاجتماعية و التكنولوجيا ، ونعني أيضا ببحث الأدراك العقلي للإنسان وابتكاراته ومعتقداته ووسائل اتصالاته (٢) ويصف عالم الأنثروبولوجيا الامريكي كليفورد غيرتز ماهية الأنثروبولوجيا ومجال دراستها حيث كتب يقول ((تدرس الأنثروبولوجيا نشأة الأنسان وتطوره وتميزه بين المجموعات الحيوانية ، وتقسم الجماعات الانسانية الى سلالات وفق أسس بيولوجية وتدرس ثقافة الأنسان ونشاطه ، وتركز الأنثروبولوجيا على المجتمعات البدائية والأنسان البدائي من حيث هو جزء من الطبيعة وتبين صلته بها ، وتشرح الأجناس والسلالات المختلفة من حيث خصائصها ومميزاتها ونموها الفكري وتطورها الفيزيائي والاجتماعي والتراثي بما في ذلك الميثولوجيا (الأساطير) والفولكلور (الفن الشعبي)(٣)

---

(١) الزهرة إبراهيم ، الأنثروبولوجيا و الأنثروبولوجيا الثقافية ، ط١ ، النايا للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ٢٠٠٩ ، ص١٦

(٢) _ حسين فهم ، قصة الأنثروبولوجيا ، فصول في تاريخ علم الانسان ، سلسة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون ، الكويت ١٩٨٦ ، ص١٣

(٣) كليفورد غيرتز ، تأويل الثقافات ، ترجمة محمد بدوي ، ط١ مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ٢٠٠٩ ، ص٢٠

ثانياً: الانثروبولوجيا في التاريخ(عرض موجز)

ان الانثروبولوجيا التي نعرفها اليوم تعود في نشأتها لأكثر من مئة وخمسين عاماً [١] وقد نمت وتطورت تدريجياً ويعزى نموها المستمر الى تراكم أفكار واجتهادات نماذج مختلفة من الباحثين التي تباينت اتجاهاتهم وتباعدت الموضوعات التي حظيت باهتمامهم كما اختلفت جنسياتهم وقومياتهم اختلافاً واسعاً ولا نبالغ اذا أرجعنا جذور الفكر الانثروبولوجي الحديث الى بعض لاتجاهات الانثروبولوجية والاجتماعية والحضارية التي عبرت عنها كتابات قدامى الكتاب والمؤرخين والفلاسفة.

فالفكر الانساني كانت بداياته العقلانية والعقيدية في حضارات بلاد الرافدين كالحضاؤرة السومرية والأكدية والبابلية والاشورية وحضارة مصر القديمة ، نجد ان عناصر الفكر الانثربولوجي القديم أخذت بالظهور بشكل أكبر في كتابات المؤرخين والفلاسفة وعلماء الطبيعة اليونانيين القدامى[٢]، ويتجلى ذلك في كتابات المؤرخ اليوناني هيدرتس الذي يدعى أحياناً بـ (أبي التاريخ) كما يدعى كذلك بـ (أبي الانثروبولوجيا)[٣] اذ سافر هيرودتس الى الأراضي البعيدة وترك لنا أوصافاً غنية للآخر)) المختلف عن اليونانيين في ذلك الزمن[٤] وشملت رحلاته مناطق واسعة من أراضي الامبراطورية الفارسية ومصر وليبيا وبابل وفي أراضي الامبراطورية البيزنطية وتراقيا ومقدونيا كما ارتحل شمالاً متجاوزاً نهر الدانوب الى شواطئ البحر الأسود ويحتوي تاريخ هيرودتس فصولاً مطولة في وصف المجتمعات والتراكيب الاجتماعية في الشعوب المكونة للامبراطورية الفارسية على وجه الخصوص وقد نجح هيرودتس بفضل عينه الثاقبة المدربة على التقاط التفاصيل واهتمامه بلا كلل بشؤون الناس الذين يضعهم تحت مجهر دراسته وبفضل خبرته الجغرافية في اعطاء صورة واضحة عن المجتمعات التي درسها[٥] ومن بين الأسئلة الكثيرة التي كان يفكر حولها تساؤله حول امكانية تأثير المناخ في التركيب النفسي والجسمي للجماعات؟ وهل هذا التركيب يتأثر بالتغذية ؟ وهل الوالد هو الزعيم الطبيعي للأسرة أم

---

[١] ماثيو انجيلكه ، كيف تفكر كأنثروبولوجي، ترجمة عومرية سلطاني، ط١، الشبكة العربية للأبحاث، بيروت، ٢٠٢٢، ص١٦.
[٢] قيس النوري، المدخل الى علم الانسان ، ط١، دار رؤية للنشر ، القاهرة، ٢٠٢٠، ص٦٦.
[٣] كلايد كلا كهون، الانسان في المرآة، مصدر سابق، ص٣.
[٤] ماثيو انجيلكه، مصدر سابق، ص١٦.
[٥] كليفورد غيرتز، مصدر سابق، ص٢١.

الوالدة؟ وهل باستطاعة البحث أن يحدد ما اذا كانت تقاليد الجماعات الانسانية قد نشأت بصورة مستقلة عن بعضها أم انها تعود الى عملية الانتشار والاقتباس التي أدت الى انتقالها من موقع معين الى مواقع أخرى كما تساءل هذا المؤرخ عن الزمن الذي يستدعيه التباين الحضاري الذي نتجت عنه نماذج الحضارات المختلفة في وقته (١) لذلك نجد ليس من الغريب أن يعلن علماء الأنثروبولوجيا أن الاباء المؤسسين للحقل هم هيرودتس وميشيل دي مونتين ولم يسافر مونتين على منوال هيردوتس بالطبع لكنه بذل جهداً معتبراً في مقالته المهمة عن ((أكله لحوم البشر)) حيث أعتنى بالحديث مطولاً الى ثلاثة هنود من الـ ((توبينامبا)) وهي ما يعرف اليوم (بالبرازيل) أحضروا في فرنسا والتقى بهم في مدينة (روان) (٢) استخدم مونتاني هؤلاء الأسرى كأخباريين أي انه جمع منهم معلومات عن العادات والتقاليد السائدة في موطنهم الأصلي وخرج من ذلك بمقولة : أنه لكي نفهم العالم لابد من دراسة التنوع الحضاري للبشر واستقصاء اسبابه لكي يتسنى لاوربا أن تفهم ثقافات الشعوب الاخرى باعتبار أن لها منطلقاتها و أخلاقياتها الخاصة بها وبالتالي نجد أن هذا الفيلسوف الفرنسي قد طرح مقدماً فكرة ((النسبية الثقافية ، على حد تعبير أدموند ليتش(٣) ولا يمكنك فهم الأنثروبولوجيا من دون فهمها (٤) كما قام الخطيب والكاتب الرومان تاسيتوس (٥٦ ق.م _ ١٢٠م) بدراسة القبائل الجرمانية والسلتية في كتابه جرمانيا وفي دراسته لتاريخ الإمبراطورية الرومانية في كتابية التواريخ والحوليات التي درست فترة الاحتلال الروماني لبريطانيا(٥)

اما ماركو بولو الرحالة الإيطالي من مدينة البندقية فقد دون مشاهداته في الأراضي الأسيوية التى زارها بدءاً من ايران ووصولاً الى الصين في كتابه الشهير المليون الذي اراده بولو وصفاً للعالم)) وليس رواية لتجاربه الشخصية ويثبت ذلك ان الكتاب نادراً ما يذكر تفاصيل رحلاته والمسافات التي قطعها وتجاربه الشخصية بل يركز على وصف بانورامي منهجي للأمكنة التي زارها هو وأقرباءه من وجهه موضوعيه غير ذاتية وهذا ما فعله في تناوله لبلاد ما بين النهرين

---

(١) قيس النوري، المدخل الى علم الأنسان ، مصدر سابق ، ص٦٧

(٢) ماثيو انجيلكة ، مصدر سابق ، ص١٦

(٣) حسين فهيم، مصدر سابق ، ص٩٢

(٤) ماثيو انجيلكة ، مصدر سابق ، ص٢١

(٥) كليفورد غيرتز، مصدر سابق ، ص٢١

وسمرقند واليابان والهند واثيوبيا و مدغشقر ،ويعتبر ابو (الريحان البيروني) من أبرز العلماء والمفكرين الموسوعيين في الحضارة الإسلامية وهو الفارسي الأصل الذي كتب بالعربية و الفارسية والتركية والعبرية والسريانية و قد قام في العقد الثاني من القرن الحادي عشر برحلة في بلاد الهند ودون مشاهداته في دراسة شاملة لتراث شعوب القارة الهندية في كتابة (تاريخ الهند) بأسلوب موضوعي غير منحاز وللقيام بذلك راقب البيروني حياة الناس اليومية وتعلم لغتهم ودرس نصوصهم وقد شملت ملاحظاته ودراساته أديان شعوب الشرق الاوسط وحوض البحر الأبيض المتوسط وتراثاتها بالإضافة الى جنوب آسيا ، وقد استمر التقليد الذي اطلقه البيروني في دراسة المنهجية العلمية لحياة الشعوب في العالم الاسلامية حتى وصل الى (ابن خلدون) في القرن الرابع عشر ويحتل ابن خلدون المركز الارفع في علم التاريخ في زمنه وقد احتوت ((مقدمته)) الشهيرة فلسفة منهجية متكاملة للتاريخ قال فيها المؤرخ الانجليزي (أرنولد توينبي) في القرن العشرين أنها ((من دون شك أعظم ما كتب في هذا الحقل في كل الأزمنة وكل الأمكنة))(١) ومن ابرز المواضيع التي تناولها ابن خلدون ما سماه ((علم العمران)) وهو ما يمكن تسميته اليوم بـ ((علم الثقافة)) والذي عرفه بأنه يتناول ((المجتمع البشري ومشاكله والتحولات الاجتماعية التي تتوالى في طبيعة المجتمع)) ويعالج بان خلدون في الكتاب الاول من المقدمة موضوع علم الاجتماع العام بينما يتناول في كتاب بين الثاني والثالث علم الاجتماع المدني وفي الكتاب الخامس علم الاجتماع الاقتصادي ويتناول في الكتاب السادس علم اجتماع المعرفة ويجمع ذلك كله في وحدة عضوية مفهوم ابن خلدون عن ((العصبية)) التي تجمع افراد قبيلة ما وسلالة أو شعب في علاقة متينه توصلهم الى السيادة ويؤدي بهم وهنها أو فقدها إلى فقدان تلك السيادة (٢)

ولقد أدت الرحلات الاستكشافية التي بدأت في القرن الخامس عشر الى إثارة الاهتمام بدراسة الشعوب البدائية المختلفة التي صارت أخبارها تصل الى أوربا تباعاً واستمرت هذه الأخبار تتزايد كلما اتسعت الرحلات والاستكشافات وكلما ازداد اتصال الأوربيين بتلك الشعوب العديدة التي تقطن المناطق الشاسعة من العالم الذي كان جله آنذاك مجهولاً غير مكتشف[٣]، وصار

---

(١) كلينورد غيرتز ، صدر سابق ، ص٢٢

(٢) المصدر نفسه، ص٢٣

[٣] شاكر مصطفى سليم ، المدخل الى الانثروبولوجيا ،مصدر سابق، ص٨.

الأوربيون ينقلون الى مجتمعاتهم ما يشاهدونه من غريب الأعراف لدى الجماعات التي يزورونها.

ولم يكن هناك هدف مشترك يجمع الرحالة الغربيين في رحلاتهم للمجتمعات غير الأوربية فقد اندفع بعضهم بدافع المغامرة وحب الاستطلاع وارتياد مجاهل القارات والجزر البعيدة للتعرف على وجوه الحياة الغربية التي تحياها مجتمعات الانسان.

وكانت هناك فئة اخرى من الرحالة حفزتها هوايتها في البحث عن التحف والقطع الفنية الاثرية النفيسة والنادرة)) الى السفر عبر أصقاع المعمورة ولابد من الاشارة هنا الى حركة النهضة الاوربية التي احيت الرغبة بالتنقيب عن بقايا الحضارتين اليونانية والرومانية القديمة ودفعت الكثير من رجاله الفكر والفن الى البحث عن آثار مافي اليونان وايطاليا وقد نشأت حركة ((الفنيين الاثريين في ايطاليا في القرن السادس عشر وقد استمرت هذه الحركة التجميعية حتى القرن الثامن عشر ثم تحولت من مجرد ميل لجميع القطع الاثرية النادرة الى حملة منظمة واسعة لاكتشاف آثار الحضارات القديمة وتصنيفها ودراستها وحملت هذه الهوايات والاتجاهات الكثيرين من الاوربيين الى مناطق جغرافية متباعدة بحثا عن المواقع الأثرية وفي الوقت نفسه أتاحت لهم فرص الاتصال بمستوطني تلك المواقع ودراسة عاداتهم الاجتماعية (١)

على اننا نستطيع ان نعتبر القرن الثامن عشر نقطة بدء مناسبة للأنثروبولوجيا نشهد بعدها ظهور العناصر المكونة لهذا العلم فأراء مونتسكيو في كتابه الشهير(روح القوانين) عن المجتمع وأسسه وطبيعته وكتابات (سان سيمون) وادعاءه وجود علم للمجتمع واراء (ديفيد هيوم) و(آدم سمث) ونظرتهما الى المجتمعات باعتبارها تتكون من أنساق طبيعية واعتقادهما بالتطور غير المحدود وبوجود قوانين لذلك التطور كل تلك التأملات والآراء حوت بلا شك البذرات الصالحة والمكونات الأساسية التي نمت في القرن التاسع عشر[٢] الذي طغت فيه موجة الغزو الاستعماري التي اكتسحت معظم المجتمعات غير الأوربية وفرضت عليها سيطرة الرجل الأوربي الذي صار يدرس أنشطتها الاجتماعية المحلية لغرض ادامة خضوعها لحكمه ولتسهيل مهام

---

(١) قيس النوري ، طبيعة المجتمع البشري في ضوء الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، الجزء الاول ، ط١ ، رؤيا النشر والتوزيع ، القاهرة ، ٢٠١٨ ، ص٢٥ _٢٦

[٢] شاكر مصطفى سليم، المدخل الى الانثروبولوجيا، مصدر سابق، ص٩.

ادارتها والى جانب الموظفين الاستعمارين الإداريين والعسكريين ظهرت فئة المبشرين الذين تغلغلوا في صفوف سكان القرى والقبائل المسيحية بينهم وقد وفرت لهم أقاماتهم الطويلة الكثير من المعلومات الاثنوجرافية التي أخرجوها بشكل تقارير وصفية عامة الا انها تفتقر للموضوعية والحياد وكانت إلى جانب ذلك مصابة بعلة التحيز النفسي والاجتماعي الذي صيغ كل استنتاجاتها ومشاهداتها نتيجة تعصب كاتبيها بحكم افتقارهم للتدريب الاكاديمي (١) وبعد منتصف القرن التاسع عشر بدأت أمهات الكتب القديمة في الانثروبولوجيا بالظهور في أوربا وأمريكا ، وكان أبرز تلك الكتب كتاب (السر هنري مين) (القانون القديم) (١٨٦١) وكتابه عن المجتمعات القروية في الشرق و الغرب (١٨٧١) وكتاب باخوفن عن (حق الام) (١٨٦١) وكتاب فوستيل دوكولانج عن (المدينة العتيقة) (١٨٦٤) وكتاب ماكلينان عن (الزواج البدائي) (١٨٦٥) وكتاب السر أدورد تايلور المسمى (ابحاث في التاريخ القديم للجنس البشري) (١٨٦٥) وكتابه الاخر عن (الثقافة البدائية) (١٨٧١) ثم كتاب لويس مورغان عن (انساق روابط الدم و المصاهرة في العائلة الانسانية) (١٨١٧) (١) وكان اشهر هذه الكتب جميعا هو كتاب (الغصن الذهبي) للسير جورج جيمس فريزر الذي امضى حياته وهو يجمع ويصنف كتابه ذا الثلاثة عشر مجلداً الذي يدرس فيه السحر و الدين .

ان ما يميز هذه الاعمال جميعها هو اعتمادها على مصادر مكتوبة ليست جميعها نتاج ملاحظات ميدانية مباشرة ولكن كانت هذه المساهمات ذات اهمية واضحة لتطوير الانثروبولوجيا (٢) كحقل علمي اولا : بدأ هؤلاء الكتاب في توثيق ولاول مرة التنوع الرائع للعادات و المؤسسات التي مارستها مجموعات من البشر في القرن التاسع عشر وهو كم من الحقائق ذات امكانات عظيمة وذات تبعات فلسفية وخلقية لم يتم تفسيرها او تحقيقها . ثانيا : بدأوا تطوير مصطلحات وصفية لبعض اجزاء هذا التنوع مع سك مفردات فنية مثل (الارواحية) (والزواج الاغترابي) و (النسب الامومي) و (الطوطمية) و (التابو) وهكذا مقدمين مجموعة من المفاهيم استمر

(١) قيس النوري، طبيعة المجتمع البشري في ضوء الانثروبولوجيا الاجتماعية، مصدر سابق، ص٢٦.

(٢) شاكر مصطفى سليم ، المدخل الى الانثروبولوجيا ، مصدر مايق ، ص ٩ – ١٠

علماءالانثروبولوجيا في استخدامها ونقدها وتوسيعها منذ ذلك الوقت ، لكن بقي هولاء العلماء يشار اليهم بانهم علماء انثروبولوجيا المقاعد الوثيرة(١)

٢ فردرديك بارث واخرون ، الانثروبولوجيا حقل علمي واحد واربع مدارس ، مصدر سابق ، ص ٢٤ – ٢٦